

خاتمة سورة الإسراء

اختتمت السورة بنبذة عن نهاية بني إسرائيل كما بدأت بذكرهم ، ونبذة أخرى عن القرآن الذي هو منهج الله المنزل لعباده في الأرض مثلما ذكرت مقدمتها — كذلك — نبذة عن بداية بني إسرائيل الذين آتاهم الله التوراة ، وعن القرآن الكريم أنه يهدي للتي هي أقوم ، لتتولى أمة محمد ﷺ الخلافة بدلا من بني إسرائيل وتقوم على كتاب الله تعالى ، فتقيم حدوده وتطبق شرعه الذي أنزله بعدما حرف بنو إسرائيل قواعد التوراة ومبانيها ، ثم ذكرت جاءت نهاية السورة وخاتمتها بالأمر بالدعاء والصلاة والتوحيد الخالص لله وأخيرا بالأمر بالتكبير ، الذي هو علامة النصر حالما يسود دين الله على الدين كله .

بذلك تكون الخاتمة من جزئين :-

- بني إسرائيل الأرض والإتيان بهم لفيها
- القرآن وتفاعل أهل العلم به

الجزء الأول للخاتمة

إسكان بني إسرائيل الأرض والإتيان بهم لفيفا

قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْخُورًا (101) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (102) فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَقِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعْرِضْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (103) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (104)

قوله (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْخُورًا) (101) هذه الآيات التسع التي أشارت إليها الآية هي التي ورد ذكره في القرآن من الخوارق المادية التي أنزلها الله تعالى لتكون حجة لنبيه موسى على فرعون ، ولكي ينتهي قوم فرعون عن الظلم ويعودوا إلى الله تائبين ، وتمثلت في (العصا، واليد البيضاء) وقد ورد ذكرهما في قوله تعالى ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأُشْفِي بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿طه: 17-24﴾

ومنها آيتا السنين أي سني القحط ونقص من الثمرات»، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 130].

وقد ورد ذكر خمس منها في قوله (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ) (الأعراف/ 133) .

وقد كانت آية واحدة كافية لتقييم الحجة عليهم فيؤمنوا ، ولكن الله استرسل معهم في الآيات الواحدة تلو الأخرى ، ونلمس من تعدد الآيات حكمة في تنوع طبيعة الابتلاءات ، فالابتلاء بالعصا واليد كان في مستهل الدعوة ليكون علامة إنذار لفرعون خصوصا وملاءه ، فإرهبوا من عصا موسى ، ويستبشروا بيديه البيضاء ، أما آية الطوفان والقحط والجدب ونقص الثمرات فهي تخص أغنياء القوم خصوصا ، وأما آية الجراد والقمل والضفادع والدم ، فإنها تخص جنود فرعون الذي طغوا في البلاد ، ليروا جنود الله وهي تطغي عليهم فتهلك الحرث والزرع وتفسد معاشهم ، وهي مجرد حشرات ، وأخيرا آية فرق البحر لتكون آية خاتمة لفرعون وجنوده فيرتدعوا عن ملاحقة موسى ومن آمن معه ، وكذلك آية لبني إسرائيل ليرون قدرة الله ومعيبته لهم ليحملوا عبء الدعوة بعدما أورثهم الله الأرض من بعدهم .

قال صاحب الظلال (وعلى آية حال فإن كثرة الخوارق لا تنشئ الإيمان في القلوب الجاحدة ، وها هو ذا موسى قد أوتي تسع آيات بينات ثم كذب بها فرعون وملؤه ، فحل بهم الهلاك جميعاً)

كما أن الآيات التي أيد الله بها موسى عليه السلام تتجاوز التسع ، وقد حصرها شيخ الأزهر د عبد الرحمن تاج في ست عشرة آية ، ومنها معجزة فلق البحر فرقتين ومرور موسى -عليه السلام- ببني إسرائيل بينهما على أرض

يابسة حتى وصلوا شاطئ البر الآخر سالمين، ثم غرق فرعون ومن كان معه من كبار جيشه والملا من قومه، وهم الذين كانوا يركضون خلف بني إسرائيل ليقتلوهم ويقضوا عليهم؛ فإنهم تبعوهم في ذلك الطريق، ولكنهم ما كادوا يتوسطونه حتى انطبق عليهم البحر من شقيهِ فلم ينجُ منهم أحد.

وكانت **حادثة انفلاق البحر فلقتين كالطودَيْن العظيمَيْن** معجزة وحادثة انضمام الفلقتين إحداهما إلى الأخرى، وعودة البحر إلى ما كان عليه معجزة أخرى ؛ كلتاها معجزة لموسى -عليه الصلاة والسلام-، أمره الله -سبحانه وتعالى- في الأولى بأن يضرب بعصاه فضربه ضربةً انفلق بها فلقتين، وكان بينهما الطريق اليبس الذي نجى الله به بني إسرائيل من فرعون وبطشه. ثم كانت **المعجزة الثانية بانضمام الفلقتين وعودة الماء إلى حالته الأولى** لإغراق فرعون ومن كان معه من جنده وقومه.

ومنها معجزة تنق الجبل فوق بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر، وتهديدهم بإسقاط الجبل عليهم لتثاقلهم في امتثال أوامر الله تعالى، وتراخيهم في تنفيذ الأحكام التي حملها إليهم رسولهم من عند الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 171].

ومن المعجزات التي أكرم الله بها سيدنا موسى منحة له ولبني إسرائيل **معجزة تظليل الغمام عليهم وهم في التَّيِّه**، فكان السحاب يسير معهم فوقهم يمنع عنهم لفح الشمس، وقيهم شدة حرّها. **ومنها معجزة المنّ** الذي كان يرسله الله عليهم كلّ صباح من الفجر إلى طلوع الشمس، وهو مادة بيضاء حلوة كانوا يتغذون بها أجود غذاء، وكانت تغنيهم عن الخبز المعتاد، وكانوا أيضًا يصنعون منها نوعًا من الخبز. **وكذلك معجزة السلوى**: وهو طائر السُّمَّاني المعروف أو نوع قريب منه. كان يرسله الله عليهم آخر النهار من كلّ يوم، فكان لهم من هذا وذاك أطيب غذاء يتجدد لهم كلّ يوم، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِمُوسَى إِسْمَاءَ الْغَمَامِ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 57].

ومن المعجزات التي أكرم الله -سبحانه وتعالى- بها سيدنا موسى وامتن بها على بني إسرائيل **معجزة الحجر وتفجير الماء منه**، فإنهم لما فقدوا الماء وهم في التَّيِّه واشتد بهم العطش في الصحراء المحرقة استغاثوا بموسى -عليه السلام-، فسأل ربه أن يسقيهم. فأمره الله -سبحانه وتعالى- أن يضرب الحجر بعصاه فضربه، فتفجر الماء منه عيونًا غزيرة اثنتي عشرة عينًا للأسباط الاثني عشر، فكان في ذلك رَيْهِمْ وسقي دوابهم وكفايتهم في وجوه حاجاتهم إلى الماء. وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: 60].

هذه ست عشرة معجزة من المعجزات التي أكرم الله بها رسوله موسى -عليه السلام-، وهي كثيرة لا تقف عند هذه الست عشرة

وقد قيل أن الآيات التسع ليس المقصود بها الآيات الكونية وحسب ، بل هي آيات موجودة في التوراة ، والإنجيل والقرآن ، وهي التي سأل عنها اليهود النبي ﷺ فأجابهم بها ، وزاد عليها خاصةً باليهود عدم الاعتداء في السبت ، فعن

صَفْوَانَ بْنِ عَسَالٍ قَالَ قَالَ يَهُودِيٌّ لِصَاحِبِهِ أَذْهَبَ بِنَا إِلَى هَذَا النَّبِيِّ فَقَالَ صَاحِبُهُ لَا تَقُلْ نَبِيٌّ إِنَّهُ لَوْ سَمِعَكَ كَانَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَعْيُنٍ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنْ تِسْعِ آيَاتٍ بَيَّنَّتِ فَقَالَ هُمْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا تَمْشُوا بَريءٍ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَهُ وَلَا تَسْخَرُوا وَلَا تَأْكُلُوا الرِّبَا وَلَا تَقْدُوا مُحْصَنَةً وَلَا تُولُوا الْفِرَارَ يَوْمَ الرَّحْفِ وَعَلَيْكُمْ خَاصَّةُ الْيَهُودِ أَنْ لَا تَعْتَدُوا فِي السَّبْتِ قَالَ فَقَبَّلُوا يَدَهُ وَرَجَلَهُ فَقَالَا نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ قَالَ فَمَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَتَّبِعُونِي قَالُوا إِنَّ دَاوُدَ دَعَا رَبَّهُ أَنْ لَا يَزَالَ فِي ذُرِّيَّتِهِ نَبِيٌّ وَإِنَّا نَخَافُ أَنْ تَبْعَنَّاكَ أَنْ تَقْتُلَنَا الْيَهُودُ¹ .

قال بعض العلماء: إنَّ الموافقات التي نجدتها بين ما ورد في القرآن في هاتين السورتين: (الأنعام والإسراء) وما ورد في التوراة متعلقًا بالأحكام الشرعية وأصول الأخلاق الدينية قد تساعد على الحكم بأن المراد بالآيات في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ إنما هي آيات الأحكام، وليست الآيات الكونية التي هي المعجزات وقوارع العقوبات².

وهذا كما فصلته الآيات من سورة الأنعام جاءت بمثل ما ورد في التوراة وغيرها من الكتب السماوية المقدسة: قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 151-153].

ومثل هذا قد جاء مفصلاً في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا * وَآتَٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 23-27].

قوله (..فَاسْأَلْ نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا)(101) وفيه ثلاث

مسائل:-

المسألة الأولى: من هو ذلك الشخص المأمور بالسؤال؟

المسألة الثانية: من هو المطلوب سؤاله؟

المسألة الثالثة: ما هو ذلك الشيء المطلوب بالسؤال؟

¹ رواه الترمذي ج9 ص 380 رقم 2657 وضعفه الألباني ج6 ص 233
² (شيخ الأثر 1954 د عبد الرحمن تاج عين أسنًا للثريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة عين شمس: مركز التفسير للدراسات القرآنية : الآيات التسع البينات
<https://tafsir.net/articles/11082>

قال الشيخ عبد الرحمن تاج (اختلفت كلمة المفسرين في المسائل الثلاث الأولى ، ولهم في ذلك رأيان :-
الرأي الأول : أنّ المأمور بسؤال بني إسرائيل سؤال تقرير هو سيدنا محمد ﷺ أمره الله - سبحانه وتعالى - أن يسأل بني إسرائيل الذين كانوا في عهده ، أو الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام ، يقرّرون في جوابه حقيقة ما يعرفونه في كتبهم عن سيدنا موسى ، وما جرى له مع فرعون وقومه ، حينما جاءهم بتلك الآيات البينات، وما ردّ به عليه فرعون من قوله: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورٌ﴾ [الإسراء: 101].
وتقدير الكلام على هذا الرأي هكذا: فاسأل يا محمد بني إسرائيل عنه؛ أي عن موسى، وما كان منه مع آبائهم من بني إسرائيل حين جاءهم وما جرى بينه وبين فرعون وقومه ودعاهم إلى الإيمان به والتصديق برسالته.

الرأي الثاني: أنّ المأمور بالسؤال هو سيدنا موسى -عليه الصلاة والسلام-، أمره الله تعالى أن يسأل بني إسرائيل الذين كانوا في مصر يسعون في معاشهم، ويعملون تحت سلطان فرعون وفي دولته.
أمره الله أن يسأله من فرعون؛ أي يطلبهم منه؛ فالسؤال هنا بمعنى الطلب، ومعنى هذا أن يطلب من فرعون أن يخلي سبيلهم ولا يحول بينهم وبين الخروج مع نبيهم موسى ليسيّر بهم إلى حيث يريد من أرض الله كما أمره الله.
وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: 104-105].
وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: 16-17].

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: 47].
ولقد كان اهتمام موسى بخروج بني إسرائيل من مصر عظيمًا جدًّا ؛ لأنه كان يريد أن يبعدهم من مواطن الكفر والشرّك والفجور، ويخلصهم من العذاب الذي كان فرعون وقومه ينزلونه بهم، وكذلك مما عسى أن ينزل بتلك المواطن من عذاب الله وسخطه¹.

وأيا كان وجه الترجيح بين الرأيين فإن المعنى يتضمنهما ، لأن موسى مكلف بسؤال فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل كما ورد في الآيات
وكذلك ونبي الإسلام محمد ﷺ مكلف بسؤال بني إسرائيل ليحتج بعلمهم على ما حُكي له من أخبار أنبيائهم ، وأن النبي ﷺ و لأنه موكل برسالة التوحيد ، فإن الجهاد في سبيل الله هو الطريق لتحرير العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، مثلما سلك موسى هذا الطريق مع فرعون لما استغفرهم .

ويشهد لذلك قوله (أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ) (الشعراء 197) ، وقوله (فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) (يونس 94) ، وقوله (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) (الزخرف 45) ، فلو كان المأمور بالسؤال موسى فإن محمد -عليهما السلام- مأمور بالسؤال من باب الاقتداء به ، وإن كان محمد ﷺ مأمور بالسؤال

¹ (المرجع السابق : <https://tafsir.net/articles/11082>)

مباشرة بمقتضى هذه الآية ، فهو كذلك مطالب بما كُلف به موسى عليه السلام من استنقاذ المستضعفين من براثن الظالمين .

ولذلك قال رسول الله ﷺ لما قُتِل أبو جهل أنه كان (فرعون هذه الأمة) كما في حديث أبي عُبَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ أَتَيْتُ أَبَا جَهْلٍ وَقَدْ جُرِحَ وَقُطِعَتْ رِجْلُهُ قَالَ فَجَعَلْتُ أَضْرِبُهُ بِسَيْفِي فَلَا يَعْملُ فِيهِ شَيْئًا قِيلَ لِشَرِيكِ فِي الْحَدِيثِ وَكَانَ يَذُبُّ بِسَيْفِهِ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَلَمْ أَزَلْ حَتَّى أَخَذْتُ سَيْفَهُ فَضَرَبْتُهُ بِهِ حَتَّى قَتَلْتُهُ قَالَ ثُمَّ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ قَدْ قُتِلَ أَبُو جَهْلٍ وَبِمَا قَالَ شَرِيكِ قَدْ قَتَلْتُ أَبَا جَهْلٍ قَالَ أَنْتَ رَأَيْتَهُ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ اللَّهُ مَرَّتَيْنِ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَادْهَبْ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَيْهِ فَدَهَبَ فَأَتَاهُ وَقَدْ غَيَّرَتِ الشَّمْسُ مِنْهُ شَيْئًا فَأَمَرَ بِهِ وَبِأَصْحَابِهِ فَسُجِّدُوا حَتَّى أَلْقُوا فِي الْقَلْبِ قَالَ وَأُتِيَ أَهْلُ الْقَلْبِ لَعْنَةً وَقَالَ (كَانَ هَذَا فِرْعَوْنَ هَذِهِ الْأُمَّةُ)¹

قوله (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا) (102) قائل هذه العبارة موسى ، يشهد على فرعون بعلمه أنه على باطل وأن موسى على الحق ، وأن الآيات التي جاءت من عند الله وليست من قبيل السحر كما يزعم ، وهو يدل على أن فرعون كان عالما بأن الله تعالى هو الذي أنزل الآيات التسع المشار إليها ، ولكنه كان يكفر بذلك حجودا ، فحاجه موسى بعلمه ذاك .

لكن لما رأى موسى عناده هدهد بالهلاك ، ولم يبال بصنيعه معه ، فتلک آخر رسالة للنبي إلى فرعون تضمنت تحذيره من الهلاك إن ظل على عناده .

وهكذا نلمس من هذه الآية درسين تربويين : -

الدرس الأول : أن أهل الباطل يحاربون أهل الحق وهم يعلمون أنهم على باطل وأن من يحاربوهم على الحق الدرس الثاني : أن الخطاب الدعوي وإن كان في الأصل يجمع بين الترهيب والترغيب ، وبين البشارة والندارة ، فإنه أحيانا وفي مراحل الأخيرة يتلون بلون الندارة فحسب ، وذلك عندما يلبس أهل الباطل لباس العناد والاستكبار ، وقد اقتربت المواجهة بينهم وأوشكت على الحصول ، ليقصي أحدهما الآخر عن طريقه ولا بد .

فالخطاب الدعوي يتحول إلى الحسم والتهديد - بعد إقامة الحجة الكاملة- في حالات محددة يقتضيها الموقف ، إذ لا يبدأ الأنبياء أو الدعاة بالوعيد ، بل ببلين الخطاب كما بدأه موسى مع فرعون كما أمره الله فقال له ولهارون في البداية ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾. لكن عندما رأى أن الدين لم يزد الطرف الآخر إلا طغياناً تحول الخطاب لإظهار قوة الحق ، وذلك عندما يرى الإصرار على ظلم الآخرين واستضعافهم ، مثل محاولة فرعون استئصال بني إسرائيل وطردهم ، هنا يصبح التهديد بالهلاك الإلهي ضرورة لكسر شوكة الباطل وتثبيت المؤمنين.

¹ رواه أحمد ج8 ص 168 رقم 3633
انظر تحقيق هذه الزيادة (فرعون هذه الأمة) عند أهل الحديث في صيد الفوائد

فقد استظهرت الآيات استهزاء فرعون بالآيات واستحقار موسى بقوله ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ فجاء رد موسى قاطعا على ذات الصيغة والوزن ﴿وَلِئَلَّا أَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾، لبيان أن موقف الداعية ليس موقف ضعف أو انكسار.

والغرض من ذلك نفسي وتربوي ولا شك ، إذ يتضمن تثبيت للفتنة المؤمنة إزاء تهديد فرعون لها ، فلا يظن الطاغية أو المعاند أن لين الداعية عجز أو خوف ، ويشعر المستضعفين بأن الله معهم وناصرهم ، وأن الباطل مخزول مهزوم ، وتلك هي الصدمة الأخيرة التي يوجهها أهل الحق قبل جهاد الباطل ، لعلهم يستيقظون ، مثلما يفعل رسل رسول الله ﷺ قبل جهادهم الملوك الظالمين ، فيخبرونهم بين الإسلام أو الجزية أو الحرب .

قوله (فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا) (103) ، فما كان من فرعون إلا أن حاول استفزازهم بعد أن اضطهرهم للهجرة من مصر والسير ليلا بعيدا عن بطش فرعون ، ولكنه لم يكتف بذلك بل طاردهم من الأرض ليقضي عليهم ، ولكن الله خيَّب سعيه فأغرقه ومن معه .

قال ابن عاشور (أضمر المشركون إخراج النبي ﷺ والمسلمين من مكة، فمثلت إرادتهم بإرادة فرعون إخراج موسى وبني إسرائيل من مصر)¹ ونظير ذلك في سيرة النبي ﷺ قوله تعالى: (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا) [الإسراء:76].

قوله (وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ..) (104) لما نال فرعون جزاؤه في الدنيا بالغرق ، آلت كنوزه وثرواته للمستضعفين المتبعين لموسى عليه السلام من بني إسرائيل، قال تعالى (فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) (الدخان:59)

كذلك لما نال صناديد الكفر من قريش جزاؤهم في بدر بالقتل ، آلت غنائم المشركين للنبي ﷺ وأصحابه بعدما انقضت الغزوة وما تلاها من غزوات ، حتى أورث الله صحابة رسول الله ﷺ الأرض ومن حولها ، يقول صاحب الظلال (عندما يلجأ الطاغية إلى قوته المادية ، ويعزم أن يزيل أهل الحق من الأرض ويبيدهم - وكذلك يفكر الطغاة دائما - وعندئذ تحقق على الطاغية كلمة الله ، وتجري سنته بإهلاك الظالمين وتوريث المستضعفين الصابرين).

قال ابن كثير (وفي هذا بشارة محمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سَنَّةٌ مِمَّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا) [الإسراء: 76 ، 77] ؛ ولهذا أورث الله رسوله مكة، فدخلها غنوة على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلماً وكرماً، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم)²

¹ التحرير والتنوير ج14 ص 179
² تفسير ابن كثير ج5 ص 125

قوله (..فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا)(104) قيل هي إشارة إلى حشرهم بعد البعث ، يقول الإمام البقاعي أي (بعثناكم وإياهم محتلطين ، لا حكم لأحد على آخر ، ولا دفع لأحد عن آخر على غير الحالة التي كانت في الدنيا ، ثم ميزنا بعضكم عن بعض)¹.

وذهب آخرون إلى أن وعد الآخرة يعني ظهور علاماتها الكبرى ، قال ابن عباس (ووعده الآخرة عيسى ابن مريم)²، فذهب بعض المفسرين المعاصرين (مثل الشيخ متولي الشعراوي وبعض العلماء) إلى تفسير "وعد الآخرة" بالإفساد الثاني لبني إسرائيل³ ، وأشار إلى تجمع اليهود واختلاطهم من شتى بلدان العالم ليعودوا إلى أرض فلسطين في العصر الحديث تمهيداً لوعد الآخرة ونهاية إفسادهم.

قال الشعراوي (والجاء بهم لفيفاً إنما يعني أن يجمعهم في وطن قومي لتأتي لهم الضربة القاصمة)⁴ وقال الشعراوي (واللفيف هو الجمع غير المتجانس الذي يتنافر مع نفسه ومع من حوله . وبما أن الله سبحانه وتعالى قد قضى أن يحدث قتال بين اليهود وبين المسلمين . . يستعيد فيه المسلمون المسجد الأقصى . فكان لابد أن يجمعهم في مكان واحد . لأنهم لو بقوا كجاليات متفرقة في كل دول العالم ومعزولة عن المجتمعات التي يعيشون فيها لاقتضى ذلك أن يجارب المسلمون العالم كله . ولكن الله سبحانه وتعالى سيأتي بهم من كل دولة إلى المكان الذي فيه بيت المقدس حتى يمكن أن يحاربهم المسلمون ، وأن يدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة)⁵.

وأكد هذا المعنى الشيخ محمد الحسن الددو الشنقيطي فقال (فسيجتمع بنو إسرائيل كلهم في الشام، وقد بدأ هذا وشاهدناه وحصل منه في زماننا هجرات كثيرة لليهود، فقد جاء يهود الاتحاد السوفيتي، ثم جاء بعدهم يهود الفلاشا من أفريقيا، وما زالوا يجتمعون، والآن يخططون لجلاء اليهود من أوروبا وأمريكا ليجتمعوا في هذا المكان بعد أن اجتمع فيه اليهود من المغرب واليهود من المشرق)⁶ ، وأكد أن هذا هو الحشر الثاني كما حصل الحشر الأول في قوله (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ) [الحشر:2].

قال الماوردي (فإذا جاء وعد الآخرة) فيه ثلاثة أقاويل :-
أحدها : وعد الإقامة وهي الكرة الآخرة ، قاله مقاتل .
الثاني : وعد الكرة الآخرة في تحويلهم إلى أرض الشام .
الثالث : نزول عيسى عليه السلام من السماء ، قاله قتادة⁷ .

¹ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج4 ص 434
² انظر ابن جرير الطبري ج13 ص 174 ، تفسير ابن كثير ج3 ص 492 ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ج4 ص 349 ، وانظر إلى تفسير الألوسي والنيسابوري والبنغوي
³ تفسير الشعراوي ج1 ص 5334
⁴ تفسير الشعراوي ج1 ص 4072
⁵ تفسير الشعراوي ج1 ص 170
⁶ دروس الشيخ محمد الحسن الددو الشنقيطي درس 30 ص 17 تفريغ موقع الشبكة الإسلامية
⁷ التكت والعيون ج3 ص 278

الجزء الثاني للخاتمة القرآن وتفاعل أهل العلم به

قال تعالى (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (105) وَفَرَأَيْنَا فَتَرَاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (106) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجْرُونَ لِلآذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَجْرُونَ لِلآذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (109) قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبِيرَةً تَكْبِيرًا (111)

ومن الإشارات اللطيفة، أن نرى الحديث عن القرآن في سورة الإسراء ممتد من أولها حتى ختامها ، ففي خاتمة سورة الإسراء بنجد سجود أهل العلم بالكتاب مستشعرين حلاوة القرآن ويكون من خشية الله ، وهذا الحديث تجد أن بداية سورة الكهف قد استهلكت به ، فنجد حمد الله على نعمة القرآن، هذه النعمة العظيمة التي بدأت سورة الكهف بشكر ربنا عليها (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا)¹.

قوله (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (سورة الإسراء: 105) كتاب الله حق مبين، منزل على نبي الهدى ليحقق الله به الحق ويُطِلَّ الباطل. وما كان القرآن يوماً سِفْراً يُقْتَنَى ليزين الرفوف، بل نزل ليكون منهجاً عملياً يستوعب الحياة كلها؛ تَمَثَّلَ النبي ﷺ في واقعه، وعاش به أصحابه وقومُه، والتزموا أحكامه صدقاً وعدلاً، فاستحقوا أن يكونوا حملة هذا النور ورجاله ، فبالحق التزموا أحكامه ، وكانوا أهلاً لذلك.

قال البيضاوي أي (وما أنزلنا القرآن إلا ملتبساً بالحق المقتضي لإنزاله، وما نزل على الرسول ﷺ إلا ملتبساً بالحق الذي اشتمل عليه)² ، فكتاب الله نزل بالحق فلم يطله التحريف ، قال تعالى (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (فصلت 42) ، ولما نزل نزل متضمناً للعقائد الصحيحة والأحكام العادلة ، فهي الحق .

التعبير بـ " أنزلناه " بين جهة الفاعل وهو الله عز وجل الذي أنزله بالحق، والتعبير بـ " نزل " بين حال المنزل نفسه بأنه وصل بالحق والتمام إلى الأرض على قلب النبي ﷺ من غير شائبة باطل.

ويقول د فاضل السامرائي تكرر الحق في الآية (فمعنى "الحق" الأول غير الحق الثاني، ففي قوله (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ) الحق هنا يعود إلى الحكمة الإلهية والوقيت المناسب والضرورة الملحة لنزول المنهج والإصلاح، فالاجتماع البشري كان بحاجة ماسة لهذا الهدى في ذلك التوقيت بالذات، فالتنزيل من حيث التوقيت والحكمة هو "الحق الأول".

¹ مع تصريف <https://kalemtayeb.com/safahat/item/8960>

² (تفسير البيضاوي ج2 ص 455 ، تفسير أبي السعود ج4 ص 230 ، تفسير الألوسي ج11 ص 124

وفي قوله (وَبِالْحَقِّ نَزَلَ) الحق هنا يعود إلى المضمون ذاته؛ أي ما اشتمل عليه القرآن من العقائد، والأحكام، والتشريعات، والقصص هو "الحق الخالص" المطابق للواقع والحقيقة، وهو "الحق الثاني"¹.

قوله (..وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (105) أي ما كلف النبي ﷺ ولا أصحابه إلا بالبشارة والندارة لقومهم ، فليسوا مسيطرين عليهم ولا مسيطرين .

قوله (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكُثٍ وَنُنَزِّلُهَا نَزِيلًا) (106) أي أن علة نزول القرآن مفرقا بحسب الوقائع أن يكون تطبيقه أيسر على البشر ، ولذلك لم ينزل جملة واحدة علي الناس ، بينما بنو إسرائيل نزلت عليهم التوراة جملة واحدة لأنهم تخطوا مرحلة بناء الدولة قبل أن تنزل التوراة بعدما ورثوا كنوز فرعون ، فكان من لازم أن تنزل التوراة مكتملة الأحكام الشرعية لأن الدولة لا تحكم إلا بتشريعات كاملة ، بينما سيرة رسول الله ﷺ بدأت قبل تكوين الدولة في المدينة بقرابة ثلاثة عشر سنة ، فكان التدرج في التشريع يناسب التدرج الذي حصل في سيرة النبي ﷺ وأصحابه ، حيث هاجر الصحابة مرتين مرة للحبشة ومرة للمدينة وكل ذلك ولم تنزل بعد الأحكام العملية التشريعية غير الصلاة والزكاة ، فلما تكونت الدولة نزلت باقي الأحكام العملية مثل الصوم والحج والجهاد والحجاب والحدود والقصاص ... الخ .

وهكذا نزلت آيات القرآن الآية تلو الأخرى بحسب زمان الناس ، فلم تنزل آية بغير حق ، تقول أمنا عائشة رضي الله عنها (أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا لَا نَدْعُ الْخَمْرَ أَبَدًا وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا لَا نَدْعُ الزَّنا أَبَدًا لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةُ أَلْعَبُ "بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ" ، وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ)² ، بهذا عاش الناس زمانهم بالقرآن ، والوحي يتنزل في كل حادثة ليعلمهم ماذا يفعلون ؟ وكيف يتصرفون ؟ وعن ماذا يكفون ؟ ولماذا يتحركون ؟ فنزل مفرقا بحسب النوازل والأحداث ، كل ذلك على مكث ، أي سنوات كثيرة تتنزل خلالها آيات القرآن الآية تلو الأخرى بحسب ترتيب الأحداث وتغير الزمان والأحوال ، وهكذا يكون نزول القرآن مقتربا بأحداث السيرة النبوية ، فمن أراد أن يتدبر هذه الآيات فليتبدر سيرة النبي ﷺ العطرة ، فذلك أيسر له على الفهم والعمل به .

وتشير الآية إلى أدب تلقي القرآن ، فكما أنه نزل على مكث خلال فترة طالت عشرين سنة ليكون أسهل في الاستيعاب والتدبر ، فالواجب كذلك أن يُتلقى القرآن بذات الطريق ليكون محققا ذات الغاية ويصل بالناس إلى مرحلة الاستيعاب والتدبر ، ولا يكون ذلك إلا بترتيبه ترتيبا ، وقراءته على مهل ، بحيث تكون تلاوته متزامنة مع تطبيقه ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه (كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات؛ لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن)³.

¹ د فاضل السامرائي : الفرق بين (وبالحق أنزلناه) و(وبالحق نزل)

<https://www.youtube.com/watch?v=MEyz55jKw0Y>

² رواه البخاري ج15 ص 394 رقم 4609

³ رواه ابن جرير بإسنادين أحدهما رواه: ابن أبي شيبة، وأحمد في ((المسند))، وابن سعد في ((الطبقات))، كلهم من طريق أبي عبد الرحمن السلمي عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ انظر: ((تفسير الطبري)) (80/1 - شاکر)، ((المصنف)) (460/10)، ((المسند)) (410/5)، ((الطبقات)) (172/6).

ولكي يكون القرآن منهجا تطبيقا لا بد من فهمه ، ويكون ذلك بقراءته مسترسلا ، وتدبره عند التلاوة ، أي (لتقرأه على الناس على ثُؤدة، فترتله وتبينه، ولا تعجل في تلاوته، فلا يفهم عنك)¹ ، والمعنى (على ثُؤدة وترسُل ليتدبروا معناه)² ، فعَنْ قَتَادَةَ قَالَ سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ عَنْ قِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ (كَانَ يَمُدُّ صَوْتَهُ مَدًّا)³ .

أما من يعجل في قراءة القرآن بهدف قراءة أكبر كم منه في أقل وقت ، فهذا تقل الاستفادة منه ، حيث (يُكْرَهُ أَنْ يُهْدَّ كَهْدُ الشَّعْرِ)⁴ ، فعن ابن عمر يقول (لقد عشنا برهة من دهرنا وإن أحدثنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يوقف عنده فيها كما تعلمون أنتم القرآن ثم قال : لقد رأيت رجلا يؤتى أحدهم القرآن فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما أمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه ينشره نثر الدقل)⁵ .

وعلي ذلك فإنه يكره أن يُقرأ القرآن كله في أقل من ثلاثة أيام قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ (لَمْ يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ)⁶ ، أي أن الماهر بالقرآن له أن يختمه كل ثلاث أيام فيقرأ السبع الطوال في يوم وإلى سورة العنكبوت في اليوم الثاني ويختتم في الثالث على أقصى تقدير ، وليس ذلك لأحد إلا لمن هو ماهر به ، وإلا انقلبت النتائج إلى ضدها ، ألا ترى أن العسل إذا تغذيت منه بما يزيد عن حاجة الجسد أضره .

والقدر الموصي به هو أن تكون ختمة القرآن كل شهر أو كل عشرة أيام أو أسبوع لمن يملك القوة والشباب والوقت لفعل ذلك ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ جَمَعْتُ الْقُرْآنَ فَقَرَأْتُهُ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنِّي أَحْشَى أَنْ يَطُولَ عَلَيْكَ الزَّمَانُ وَأَنْ تَمَلَّ فَافْرَأْهُ فِي شَهْرٍ فَقُلْتُ دَعْنِي أَسْتَمِيعَ مِنْ قُوَّتِي وَشَبَابِي قَالَ فَافْرَأْهُ فِي عَشْرَةٍ قُلْتُ دَعْنِي أَسْتَمِيعَ مِنْ قُوَّتِي وَشَبَابِي قَالَ فَافْرَأْهُ فِي سَبْعٍ قُلْتُ دَعْنِي أَسْتَمِيعَ مِنْ قُوَّتِي وَشَبَابِي فَأَبَى)⁷ .

قوله (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ..) (107) لقن الله نبيه ﷺ الجواب المناسب لمن ظنوا أن النبي ﷺ يلح عليهم الاستجابة له بأن يؤمنوا ليستنصر بهم ، والجواب أن النبي ﷺ لا يبالي بإيمانهم ، آمنوا أو لم يؤمنوا حتى يستنصر بهم ، فإذا كانوا يظنون أنه يستنصر بهم ، فهو يستنصر بربه ، وكفى بالله هاديا ونصيرا ، فالصلة بينه وبين ربه مباشرة ، ومعية الله له لا تتركه ، وإنما اهتمامه وحرصه على إيمانهم لأجل أن يكون سببا في نجاتهم من عذاب الله ، أما وظيفة النبي ﷺ فإنها تنتهي عند حد البلاغ ، فالمؤمنون يستنصرون بالحق ، وليس الحق يستنصر بهم ، قال الرازي (اعلم أن المقصود من هذه الآية تقرير تحقيرهم والازدراء بشأنهم وعدم الاكتراث بهم وإيمانهم وامتناعهم منه وأنهم وإن لم يؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منهم)⁸ .

¹ تفسير الطبري ج 17 ص 575
² ابن الجوزي : زاد المسير ج 4 ص 199
³ رواه ابن ماجه ج 4 ص 254 ق 1343
⁴ صحيح البخاري ج 15 ص 461
⁵ رواه الحاكم في المستدرک ج 1 ص 91 رقم 101
⁶ رواه ابن ماجه ج 4 ص 247 رقم 1337
⁷ رواه ابن ماجه ج 4 ص 247 رقم 1337
⁸ تفسير الرازي ج 10 ص 148

قوله (... إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَنْكُونَ وَيَرْبِدُهُمْ خُشُوعًا) (109) ونظير ذلك في قوله تعالى (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ) [المائدة : 83] ، ولذلك نجد أن أهل العلم بالكتب السابقة الذين حظوا بما لم يحرف منها إذا تليت عليهم آيات الرحمن يخرون سجدا ليكون لأنهم صادفوا عند سماع آيات القرآن ما يوافق علمهم السابق بالوحي المنزل من الله في التوراة والإنجيل ، فلما عرفوا فيه الحق ، اتبعوه دون تردد ، وكانت هيبتهم الخشوع والخضوع ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ .. ذكر منهم (وَمُؤْمِنُ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِي كَانَ مُؤْمِنًا ثُمَّ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَلَهُ أَجْرَانِ)¹ ، فالغرض من العلم بالكتاب وهو الاتباع والتطبيق لأحكامه وشرعه .

وقد وصف القرآن حالتهم الإيمانية وهم يستمعون لآيات الله ، بأنهم مصدقون بكل آية ، وهم في حال من التسبيح والحمد والتكبير ، فعَنْ خُذَيْفَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ (صَلَّى فَكَانَ إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ رَحِمَهُ سَأَلَ وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ عَذَابٍ اسْتَجَارَ وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَنْزِيهٌ لِلَّهِ سَبَّحَ)²

كما وصف هيبتهم في الصلاة أو عند سماع التلاوة بأنهم في خشوع ، ودلل على ذلك بأنهم يخرون سجدا ولحاهم قد التصقت بالأرض .



قال ابن تيمية (فإن الخور انخفاض الوجه والرأس وهو أعلى ما في الانسان وأفضله وهو قد خلق رفيعا منتصباً فإذا خفضه لا سيما بالسجود كان ذلك غاية ذله ولهذا لم يصلح السجود إلا لله ، فمن سجد لغيره فهو مشرك ، ومن لم يسجد له فهو مستكبر عن عبادته ، وكلاهما كافر من أهل النار قال تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)³).

كما وصف درجة خشوعهم بالبكاء ، يقول النبي ﷺ (عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)⁴ ، وهذه الحالة وإن لم يصل إليها المستمع لكتاب الله ، فعليه أن يستحضرها ، فإن استحضار الخشوع يعينه على تدبر القرآن وفهمه ، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ السَّائِبِ قَالَ قَدِمَ عَلَيْنَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَقَدْ كُفَّ بَصَرُهُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ مَنْ أَنْتَ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ مَرْحَبًا بِابْنِ أَخِي بَلَعْنِي أَنْكَ حَسَنُ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ

(1) رواه البخاري ج10 ص 202 رقم 2789

(2) رواه ابن ماجه ج4 ص 253 رقم 1342

(3) كُتِبَ وَرِسَالَتِ وَفَتَاوَى ابْنِ تَيْمِيَّةَ فِي الْفَقْهِ ج23 ص 145

(4) رواه الترمذي ج6 ص 190 رقم 1563 وصححه الألباني : صحيح الترمذي ج4 ص 139 رقم 1639

ﷺ يَقُولُ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا وَتَعَنَّوْا بِهِ فَمَنْ لَمْ يَتَعَنَّ بِهِ فَلَيْسَ مِنَّا¹، والحديث معناه صحيح ، وبعضه ما روي عن ابن أبي مليكة قال جلسنا إلى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في الحجر فقال ابكوا فإن لم تجدوا بكاء فتباكوا لو تعلموا العلم لصلى أحدكم حتى ينكسر ظهره ولبكى حتى ينقطع صوته²

والذي يعين على تدبر القرآن تحسين الصوت به ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَعَنَّ بِالْقُرْآنِ)³، أي لم يحسن صوته به لان التطريب به ادعى لقبوله ووقعه في القلوب لكن شرطه أن لا يزيد ولا ينقص حرفاً⁴، وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأبي موسى لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ⁵.

قوله (قُلْ اذْعُوا اللَّهَ أَوْ اذْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) (110) هذه الآية دليل على أن الإنسان وجميع المكلفين مجبولون على معرفة الإله الحق ، فهو الذي يُدعى بأحسن الأسماء والصفات ، وكل ما ليس بحسن فلا يجوز أن ينسب إلى الله تعالى ، وهكذا يعرف الإنسان ربه ، فله الأسماء الحسنى⁶

إن التضرع إلى الله بأسمائه الحسنى هو أحد أنجع أساليب الدعوة المؤثرة. فعندما يرى غير المسلم عبادة المسلم وخضوعه لربه، لاسيما في مواطن الدعاء والحمد بأحسن الأسماء، يتحرك لديه الفضول، وتتوق نفسه لمعرفة هذا الدين عند رؤيته يصلي ويقرأ القرآن. هذا الإعجاب يكون بوابتهم نحو الإسلام؛ لأن الدعاء يعرف الخلق بخالقهم وأسمائه ، ويبرز لهم عظمة صفاته العُلا، وتنزهه سبحانه عن كل عيب ونقص.

فالدعاء هو العبادة ، يقول النبي ﷺ (إن الدعاء هو العبادة)⁷، (فهذا دعاء المسألة : والدعاء هاهنا بمعنى التسمية ؛ والمعنى سمو الله أو سمو الرحمن ، وليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب، بل التسمية الواقعة في دعاء الثناء والطلب)⁸.



(1) رواه ابن ماجه ج4 ص 235 رقم 1327
(2) رواه الحاكم في المستدرک ، وصححه الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص 162 رقم 3328
(3) رواه البخاري ج23 ص 55 رقم 6973
(4) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 640
(5) رواه مسلم ج4 ص 208 رقم 1322
(6) منهج السلف في فهم الأسماء الحسنى : ج35 ص 261
(7) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 249 رقم 714 وصححه الألباني
(8) منهج السلف في فهم الأسماء الحسنى : ج35 ص 261

والمقصود هو التوجه إلى الله تعالى بالدعاء والتوسل له في قضاء الحاجات ، والإلحاح في الدعاء فإن الله يحب ذلك ، قال رسول الله ﷺ (وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ وَلِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ)¹ ، وقال ﷺ (وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحَةُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْجَنَّةَ)² .

قوله (...وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) (110) هذه الآية تبين الظروف الحالكة التي نزلت فيها سورة الإسراء ، والمرحلة الدعوية التي كانت تحيط بالنبي ﷺ ، ولا يزال بين قومه مستضعفا ، لا يستطيع أن يجهر بقراءة القرآن ، ويريد أن يسمع أصحابه ويعلمهم القرآن ، ورغم ذلك أمر أن يستمر في دعوته بالحكمة ودون حاجة لأن يصطدم مع الباطل ، فلا حاجة لأن يجهر بالقراءة ، ولا أن يخافت بها فلا يسمعه أحد ، وإنما تكون دعوته قصدا بين بين ، وذلك كله من باب الأخذ بالأسباب ، مع التوكل على الله تعالى خالق الأسباب ومفعلا ومبطلها .



عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتُ بِهَا) قَالَ نَزَلَتْ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُخْتَفٍ بِمَكَّةَ كَانَ إِذَا صَلَّى بِأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ فَإِذَا سَمِعَهُ الْمُشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ وَمَنْ أَنْزَلَهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ (وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ) أَيِ بِقِرَاءَتِكَ فَيَسْمَعُ الْمُشْرِكُونَ فَيَسُبُّوا الْقُرْآنَ (وَلَا تُخَافُتُ بِهَا) عَنْ أَصْحَابِكَ فَلَا تُسْمِعُهُمْ (وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا)³ ، وفي رواية (أَسْمِعُهُمْ وَلَا تَجْهَرُ حَتَّى يَأْخُذُوا عَنْكَ الْقُرْآنَ)⁴ .

قوله (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبِّرُهُ تَكْبِيرًا) (111) ابتدأت السورة بالنسبيح واختتمت بالحمد والتكبير ، فالحمد على نعمة التوحيد وكفى بها نعمة ، أن يختص الله بالألوهية والملك لا شريك له ، له العزة ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ آيَةُ الْعِزِّ (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا.. الْآيَةُ كُلُّهَا)⁵ .

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك والذل بكلمة التحميد؟ قلت : (لأن من هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كل نعمة فهو الذي يستحق جنس الحمد)⁶

⁽¹⁾ رواه البخاري ج 14 ص 171 رقم 1168

⁽²⁾ رواه مسلم ج 7 ص 498 رقم 2755

⁽³⁾ رواه البخاري ج 14 ص 341 رقم 4353

⁽⁴⁾ رواه البخاري ج 23 ص 8 رقم 6936

⁽⁵⁾ رواه أحمد ج 31 ص 233 رقم 15081 وضعفه الألباني : وقال

رواه أحمد (439 / 3) والواحد في " تفسيره " (2 / 192 / 1) عن رشدين بن سعد عن زيان بن فائد عن سهل بن معاذ عن أبيه مرفوعا . قلت : وهذا سند فيه ضعف ، زيان بن فائد متكلم فيه من قبل حفظه ، وقد يحسن حديثه . وقال الحافظ : " ضعيف الحديث مع صلاحه وعبادته " . ورشدين بن سعد ضعيف أيضا . وقد تابعه ابن لهيعة عند أحمد وهو ضعيف كذلك . وفي " الفيض " : " قال الحافظ العراقي : وسنده ضعيف . وقال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني من طريقين ، في أحدهما رشدين بن سعد وهو ضعيف . وفي الأخرى ابن لهيعة وهو أصلح منه ، وقد رمز المؤلف لحسنه " .

⁽⁶⁾ (الكشف ج 3 ص 493

قوله (الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا) (111) تضمنت الخاتمة تنزيهه سبحانه عن الشريك والولد ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَدَى سِمَعِهِ مِنَ اللَّهِ يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ)¹ .

قوله (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ) (111) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ (قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْكَزْبَاءُ رِدَائِي ، وَالْعِزَّةُ إِزَارِي ، فَمَنْ نَارَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أُلْقِيَهُ فِي النَّارِ)² .

قوله (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ...) (111) فقوله (وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ) أي (لَمْ يُخَالِفْ أَحَدًا)³ قال أبو حيان (أي لا ذل يوجد في حقه فيكون له ولي ينتصر به منه ، فالذل والولي متغايان)⁴، ولذلك سميت هذه الآية بآية العزة)⁵ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ما كربني أمر إلا تمثل لي جبرئيل عليه السلام فقال : يا محمد قل توكلت على الحي الذي لا يموت والحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبرا)⁶، قال الشوكاني (أمره بأن يثق به ويسند أمره إليه في استكفاء ما ينوبه مع التمسك بقاعدة التوكل وعرفه أن الحي الذي لا يموت ، حقيق بأن يتوكل عليه وحده ولا يتكل على غيره من الأحياء الذين يموتون) ، ولذلك قيل (لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق)⁷ .

قوله (وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا) (111) عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَقَبْتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةً أُسْرِي بِي فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَقْرَأْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ الْمَاءِ وَأَنَّهَا قِيَعَانٌ وَأَنَّ غُرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ)⁸ .

وعن كعب بن عجرة قال : (معقبات لا يخيب قائلهن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة)⁹ .

¹ (رواه البخاري ج22 ص 371 رقم 6830)

² (رواه أحمد ج15 ص 119 رقم 7078 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج2 ص 79 رقم 541)

³ (صحيح البخاري ج14 ص 314 معلقا)

⁴ (البحر المحيط ج7 ص 421)

⁵ (رواه الطبراني في المعجم الكبير مرفوعا ج20 ص 192 رقم 17187)

⁶ (رواه الحاكم في المستدرک وقال صحيح الإسناد ج1 ص 689 رقم 1876)

⁷ (فيض القدير ج5 ص 591)

⁸ (رواه الترمذي ج11 ص 365 رقم 3384 وحسنه الألباني : صحيح الترمذي ج3 ص 160 رقم 2755)

⁹ (رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 218 رقم 622 وصححه الألباني)